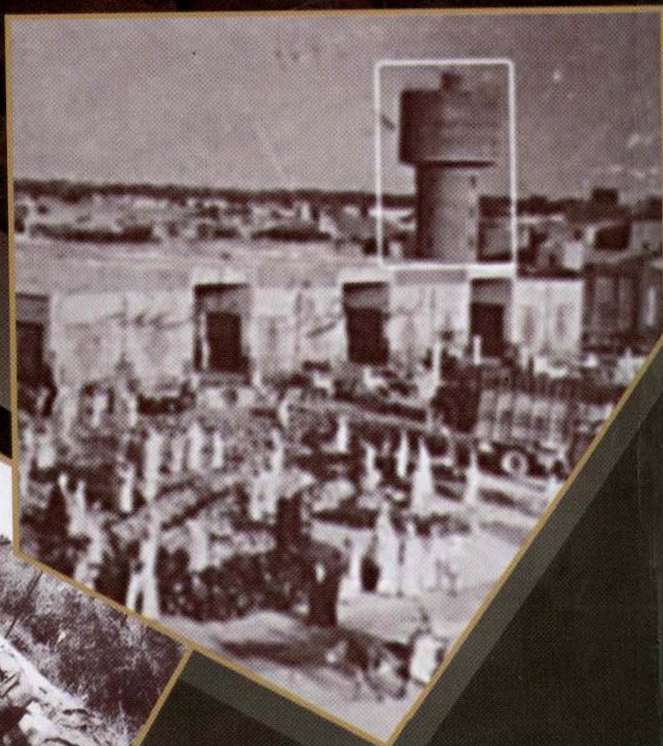
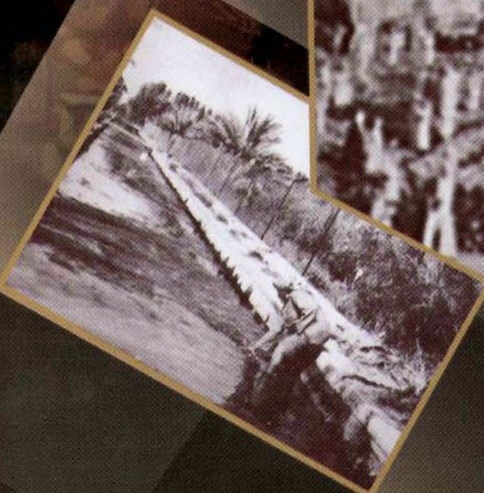
رحلة من بريدة إلى الظهران

قبل ستين سنة





كتبت هذه الرحلة في عام ١٣٧٠هـ

محمد بن ناصر العبودي

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

الناشر

الثلوثية للنشر والتوزيع

رحلة من بريدة إلى الظهران
قبل ستين سنة

كتبت هذه الرحلة في عام ١٣٧٠هـ

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

الناشر



دار الثلوثية للنشر والتوزيع

رحلة من بريدة إلى الظهران
قبل ستين سنة

ح محمد بن ناصر العبودي ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي، محمد بن ناصر

رحلة من بريدة إلى الظهران، محمد بن ناصر العبودي،

الرياض ١٤٣٣هـ

٥٤ ص ؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ ـ ٢ ـ ٩٠٣٠٩ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١- بريدة (السعودية) ـ وصف ورحلات ٢ - الظهران (السعودية) ـ وصف ورحلات أ .العنوان

ديوي ٩١٥,٣٠١٢ ١٤٣٣/١٤٨١

رقم الإيداع : ١٤٣٣/١٤٨١

ردمك: ٨ ـ ٢ ـ ٩٠٣٠٩ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

النـــاشر



دار الثلوثية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

تليفون : ٤٥٠٧٨٣٢ - فاكس : ٤٦٤٥٩٩٩

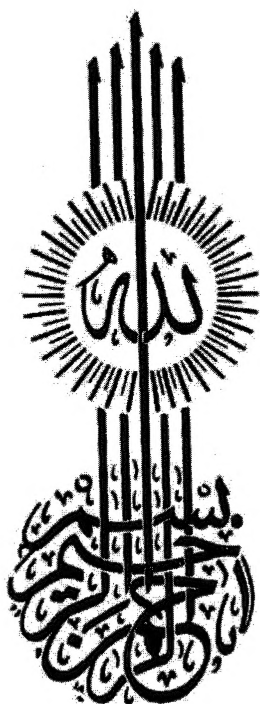
email : tholothia@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

"جميع الحقوق محفوظة للناشر"


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذه رحلة أو لنقل إنها سفرة قمت بها من بريدة إلى الظهران في عام ١٣٧٠هـ وقد مضت على كتابتها ستون سنة، إذْ العزم على نشرها كان في هذا العام الجاري ١٤٣١هـ، وقد رأيت إطلاع القراء عليها لا لأهميتها في ذاتها ولكن لكونها أنموذجاً، وإن يكن ساذجاً أو فيه شيء من السذاجة عن الكتابة في الرحلات في ذلك الوقت المبكر من حياة الكاتب.

ولشيء مهم آخر وهي أن نبين الفرق العظيم الذي شهدته مرافق بلادنا منذ تلك الفترة حتى الآن.

لقد كان السفر إلى الظهران كما تراه في هذه الرحلة مرهقاً طويلاً، ومؤلفاً من عدة سفرات يتبع بعضها بعضاً- إن صح التعبير- واستغرق من الوقت أكثر مما يستغرقه السفر إلى أمريكا الآن مرتين.

وكان بعضه على سيارة شحن كانت تحمل خشباً من خشب الأثل الذي نما في القصيم، لكي تسقف به بيوت الرياض التي كانت تبنى من الطين في ذلك الوقت، ونحن راكبون على ظهر تلك السيارة فوق الخشب من دون كراسٍ أو أي شيء مما يستند عليه الإنسان.

ولم يكن في الطريق منذ أن غادرنا بريدة حتى وصلنا إلى الظهران أي جزء مزفت، بل لا يوجد فيه أي جزء ممهد، بل هو كما كان عليه قبل ألف سنة أو تزيد.

ومع ذلك لم نكن نشعر آنذاك بذلك ولا بما يماثله، لأننا كنا تعودنا عليه حتى خُيِّل إلينا أنه لا يوجد أفضل منه.

وهو كان أفضل وأحسن مما سبقه من السفر على ظهور الإبل التي كان السفر من بريدة إلى الرياض يستغرق عليها من سبعة أيام إلى عشرة.

ومع ذلك كان ركوب الإبل رغم قدمه لا يتيسر لكل شخص لأنه يحتاج إلى أجرة، ويحتاج إلى استعداد بالزاد والمزادوأواني الطبخ، و(المعاميل) التي هي لازمة لصنع القهوة والشاي.

فكان بعض الناس الذين أدركناهم، ومنهم شيخنا الشيخ صالح بن عبدالرحمن السكيتي يسافرون إلى الرياض سيراً على الأقدام لغرض طلب العلم على المشايخ فيها.

حدثني شيخنا السكيتي عن ذلك فقال: اعتزمت السفر إلى الرياض لطلب العلم على المزيد من المشايخ فيها وبخاصة من آل الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله الذين كانوا يسمون في ذلك الوقت (العبداللطيف).

قال: فكان أهم ما في الأمر أن أجد الرفيق الملائم للسفر، وقد وجدته بالفعل من زملائي في طلب العلم، وهدفه هو هدفي، فسافرنا على أقدامنا من بريدة ليس معنا من عدة السفر إلا النعال والعصا.

أما النعال فإنها لازمة لمن يسافر لأنها تقي الرجلين من الأشواك وكسر العيدان، ومن فروع الأشجار البرية، كما تقي في الغالب من لسعة العقرب، وقد تقي من لدغة الحية.

قال: وأما العصا فإننا نتوكأ عليها إذا تعبنا ونقتل بها الحية والعقرب وإذا كان الجو حاراً، والشمس ساطعة وهي ساطعة في أكثر الأحيان نصبناها وجعلنا فوقها الشماغ واستظلنا بظلها.

قال: وكانت مؤنة السفر التي حملناها هي قليل من التمر ليس معنا غيره حتى إننا لم نكن نحمل ماءً فقد رسمنا خط السير طبقاً لما كان أخبرنا به مخبرون ذووا خبرة بأن نمر ببعض القرى بحيث نحرص ألا نبيت في البرية، إلا إذا حكمت علينا ظروف الطريق بذلك.

وقد حكمت علينا بذلك أكثر من مرة.

قال: وأما بقية مؤنة السفر أو لنقل إنه الطعام فقد أضمرنا شيئاً فعلناه وهو أن نحل ضيوفاً على أهل القرى التي نمر بها وجعلنا طريقنا على ناحية سدير،

وذلك لكون أهلها مشهورين بمساعدة من يستضيفونهم، ولأن في تلك الناحية قرى غير متباعدة.

قال: وقد أكلنا التمر الذي معنا في أول الرحلة ثم كنا نأتي إلى صاحب البستان أو حتى البيت ونقول نحن ضيوف فيقول: الله يحييكم ثم يطعمنا من عشائه، فسألته عن العشاء الذي كانوا يقدمونه لهما، فقال: يعطوننا ما تيسر أحياناً يكون جيداً لنا كالجريش وأحياناً يكون دويفة إذا جئنا وقد تعشوا وإذا كان لا هذا ولا زاك قدموا لنا بعض التمر.

قال: ووصلنا الرياض بعد ٢٨ يوماً وظني أنهم قد يجدون من يحملهم على حمار، أو بعير زائد عن حاجته ابتغاء الأجر بذلك من الله.

وقد اشترينا قليلاً من التمر من أحد الأماكن لأكله إذا بعدنا عن القرى.

إنتهى.

وبمقارنة هذه الحالة بحالتنا التي كنا عليها عندما سافرت في تلك الرحلة نجد أننا أحسن حالاً، وأوفر مالاً وأكثر راحة فنحن في ظهر سيارة ناقلة نؤمل أن تصل إلى الرياض بعد يومين.

وأما الزفت في الطرق فإننا لم نكن نتصوره في ذلك الوقت ولا حدثنا عنه محدث مجرب، ولذلك لم نعان أي أسف أو عدم رضا لركوب سيارة النقل تلك.

الرفيق قبل الطريق:

هذه كلمة قديمة متجددة فألزم اللازم للسفر هو وجود الرفيق المناسب، وقد وجدته بالفعل أو هو موجود بدون بحث وهو صديقي الأستاذ علي بن عبدالله الحصين، بل هو أصدق أصدقائي إبان طلب العلم وهو مدرس في المدرسة الفيصلية في بريدة التي كانت هي أولى المدارس فيها منذ أن فتحت في عام ١٣٥٦هـ حتى افتتاح مدرسة بريدة الثانية التي صار اسمها المنصورية نسبة إلى الأمير منصور بن عبدالعزيز وزير الدفاع في بلادنا في ذلك الوقت رحمه الله، وعينت مديراً لتلك المدرسة وأنا الذي افتتحتها، وسافرت وأنا في تلك الوظيفة.

إن الأستاذ علي الحصين هو زميل في طلب العلم وبخاصة على شيخ الجميع العلامة القاضي الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد.

وهو يشترك معي في محبة الإطلاع ومشاهدة ما في منطقة الظهران التي كانت تسمى في ذلك الوقت (مقاطعة الظهران) وبخاصة ما كنا سمعنا به من قبل عن الأمريكيين وحياتهم فيها، وكذلك عن مؤسساتهم

وعن الصناعات التي كانوا يعملون فيها من قوم آخرين من العمال التي كانت لديهم خبرة أو شيء من الخبرة في ذلك الوقت من خارج بلادنا.

ما لم أكن أتصوره:

الشيء الذي لم أكن أتصوره أنه سيأتي عليَّ يوم أرى أن تسجيل ما سجلته في تلك الرحلة سيكون بعد مدة من السنين من العجائب والغرائب مثل حالة الطريق من بريدة إلى الرياض، إذْ كنت وصفته في حينه بدون أن أتصور أنَ الحديث عنه سيكون من الحديث عن الأشياء المستغربة، بل المستبعدة في المستقبل.

ولا شك أن بعض القراء المحدثين الذين سيقرأونه وفي أذهانهم ما فيها من حسن الطرق في بلادنا واتساعها وتنظيمها ووجود المحطات فيها الآن، بل وبسرعة الوصول إلى الرياض منها سوف يقولون لماذا تكون الطرق في القديم على ما وصفته؟ ولماذا لم تزفت وتذلل؟

والجواب: إننا لم نكن نحس أنها يجب أن تحسن لأننا كنا نظن أن الحالة التي كنا عليها ليس بعدها حالة أفضل منها أو كما يقول المتحذلقون القدماء: (ليس في الإمكان أبدع مما كان).

وقد يلمز بعضهم الحكومة في هذا الشأن، ولكن الحكومة في ذلك الوقت ليست لها مداخيل مالية، وليس عندها من المال ما تنفقه على

الأشياء الضرورية من التعليم والتطبيب ونحوهما، وتوفير الأغذية في بلادنا الصحراوية التي لا تنتج ما يكفي فيما يتعلق بالأفواه التي تطلب الطعام والبطون التي تزف إليها الأولاد والبنات مما لم يحسب أحد حساب ما تحتاج إليه من ضروريات الحياة.

وكان الناس قد استبشروا خيراً ببدء إنتاج النفط بعد اكتشافه في البلاد، ولكن كان نصيبها آنذاك ضئيلاً، وكانت أسعار النفط المصدر متدنية، والأهم من ذلك أن حاجات بلادنا الواسعة كانت كثيرة، وكانت تتزايد.

وعلى أية حال فإن إطلاع القراء الكرام على مثل هذه الرحلة التي تتحدث عن ذلك الوقت المبكر من التطور بل الشعور بالحاجة إلى التطور قد يكون مفيداً، وهذا ما قصده الكاتب.

وعلى الله قصد السبيل.

مقدمة الرحلة:

غريزة حب الإطلاع والكشف عن المجهول غريزة مغروسة في جميع نفوس بني آدم وإذا كانت في بعض بني آدم أكثر من بعض فلأنها موجودة في نفوس البعض أكثر من البعض الآخر.

وهي غريزة من أنفع الغرائز الإنسانية ونفعها ملازم للإنسان منذ نعومة أظفاره ولولا تلك الغريزة لما استطاع الطفل أن يعرف الشيء الكثير

مما يدور حوله مباشرة أو غير مباشرة إذ أن أسرته مهما أرادت أن تبدأه معرفة بالشيء الذي يجهله لابد وأن لا تصل إلى عشر- معشار ما يبحث عنه هو بنفسه مدفوعاً بتلك الغريزة التي أودعها الله في طبعه.

ثم تواكب تلك الغريزة الإنسان في مراحل حياته بل والأمم كذلك، وما الأمم غير أفراد مجتمعين فيجني بسببها أطيب الثمار، وما الاكتشافات والاختراعات والمغامرات في مجاهل الأرض إلا بدافع من تلك الغريزة اللهم إلا فيما ندر والنادر لا حكم له ولا يقاس عليه.

نعم إن الناس يتفاوتون في نصيبهم من تلك الغريزة فمقل ومستكثر ومن البديهي أن نصيب كرستوفر كولومبس مكتشف العالم الجديد لم يكن كنصيب أحد أفراد الأمة الإيطالية التي هو فرد منها في ذلك الوقت، ولو كان كذلك لما خاطر بنفسه ورجاله سعياً وراء نتيجة لم تكن توجد حتى في أدمغة غيره في ذلك الوقت فضلاً عن الإقدام على تحصيلها.

وما قيل عن كرستوفر كولمبس يجب أن يقال عن غيره من الرحالين والمكتشفين الكثيرين ومنهم بيرد مكتشف القطب الشمالي وما جلان الذي دار حول الأرض وغيرهم وغيرهم ممن نجني الآن ثمار ما عملت أيديهم وما تجشموه من المشاق والمصاعب مدفوعين بدافع تلك الغريزة المذكورة.

وكما أنه يوجد مثل هؤلاء كذلك يوجد في مقابلهم بعض الأفراد الذين تكاد تنعدم عندهم تلك الغريزة ولعل من سوء حظي أن تلك الغريزة موجودة لدي أكثر ممن يحيطون بي فيما اعتقد حتى إنني لولا خوفي من الناس لصرفت جميع ما أملك في سبيل زيارتي لبعض البلدان والممالك.

ومن سوء حظي أيضاً أنني لا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة الملحة في زيارة الأماكن والمدن التي أتحرق شوقاً إلى زيارتها كلما ذكرت لا أستطيع من جميع النواحي أو من أكثرها من الناحية المالية ومن الناحية الاجتماعية ومن غيرها لا أستطيع ذلك ولذلك فإنني جعلت أكثر زياراتي للأماكن القريبة الممكن زيارتها حتى إنني لا أسمع بمكان أو قرية أو مركز تسمح لي إمكاناتي الخاصة أن أزوره إلا فعلت.

وما أظن أحداً في بلدنا المشتركين معي في نفس الظروف يعلم من قرى القصيم وأماكنها علم اليقين أكثر مما أعلم ولست بزيارتي تلك، أقول غير الحق فأزعم أنني أذهب إلى تلك الأماكن للدراسة التاريخية مثلاً أو الاجتماعية أو إنني أذهب إليها لكي استفيد فائدة رئيسية غير ذلك ولكنني أذهب إليها وأزورها واطَّلع عليها لأرضي تلك الغريزة المتوفرة لدي قبل

أن أذهب إليها لأدرس أو أحقق على أنني لا أنكر أنني استفدت فوائد عديدة من جراء ذلك وإن لم تكن هي مقصودة مني بالذات.

وطالما كنت أقرأ كثيراً بكل شوق وتلهف عن الأعمال التي قامت بها شركة الزيت العربية الأمريكية في مقاطعة الأحساء والظهران وكيف أنها حولت تلك الصحاري القاحلة الماحلة الموحشة إلى بلدان زاهية عامرة بين عشية وضحاها وعن أخلاق الأمريكيين وعن سيرة العرب معهم وعن صبر الأولين وجلدهم على العمل في جحيم القيظ وزمهرير الشتاء وعن الآلات الضخمة الجبارة وعن الثروات العظيمة التي تسيل من جوف الأرض مروية كل فريق وجالبة الغنى والرفاه لمن له بحبلها اتصال.

وعن حالة شبابنا العرب وهم شباب أعرفهم حق المعرفة وأتصل بهم أوثق اتصال قبل أن يبارحوا بلدنا إلى تلك البلاد وكيف أن أولئك الشباب صاروا عرباً أولاً ومتعلمين وعاملين ثانياً قد احتفظوا بمعروبتهم ثم لم يتركوا العمل للأجانب وحدهم وكيف أنهم نبغوا في مختلف الصناعات وصاروا موضع إعجاب الفريق الآخر من الأمريكيين.

وكنت أقرأ كثيراً عن ذلك واسمع غير ذلك، مما يشبهه فكنت أتمنى لو قدر لي أن أزور تلك المقاطعة وأسأل الله تعالى أن يقدر ذلك مع استبعادي له حتى يكاد يصل بي الاستبعاد إلى حد اليأس في الوقت

الحاضر، لما هناك من موانع وحواجز وعلل وأسباب تمنع تلك الزيارة وتقف في طريق الوصول إلى ما أتمنى وما أريد.

وهناك مانع آخر وهو البحث عن رفيق في الرحلة وهو مع سهولته أسهل من البحث عن رفيق في الظهران لأنه لا يوجد هناك فنادق لائقة أو محلات لائقة للإيجار للاقامة فيها مدة تقارب نصف شهر، وهي المدة التي تلزم لمثل من يريد غرضاً كغرضي مع أنه لا يمكنني الزيارة في غير أوقات العطلة الصيفية للمدارس.

ولبثت أنتظر الفرصة بين اليأس والرجاء ولليأس الغلبة علي أحياناً.

وميض:

وفي وقت من الأوقات التقيت بصديقي عودة بن الشيخ عبدالله بن عودة السعوي فوجدت عنده رجلاً لطيف المعشر لين الجانب تدل على ذلك قسمات وجهه قبل أن تكلمه فقال لي صديقي الأول مشيراً إلى ذلك الرجل: سَلِّم على الأخ محمد.

فكان سلام وكان تعارف وكان من ذلك اكتشافي بأن بيني وبينه رابطة ميول مشتركة ونظرة متشابهة فصار من ذلك الوقت صديقاً لي صداقة تفوق صداقة أخيه صديقي الأول الشيخ عودة، وكانت وظيفته أي صديقي الجديد هي الكاتب الأول لمحكمة الدمام الشرعية الذي

يراسها فضيلة والده الشيخ عبدالله السعوي قاضي الدمام ورئيس قضاة مقاطعة الظهران.

إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه:

وفي مناسبة من المناسبات ولا أذكرها الآن قال صديقي الجديد الشيخ محمد بن عودة: هل لكم في زيارة الظهران؟ إن فيه من العجائب والمشاهد الغريبة ما يلذ لكم حقاً أن تشاهدوه وما يستحق منكم أن تبذلوا في سبيله كل ما تستطيعون، إن جماعة من أصحابنا يقولون إن من يتفرج في الطهران كمن يتفرج في أمريكا.

ثم قال: وأنا على استعداد بأن أصحبكم هناك فأعرفكم إلى من لا تعرفونه من الموظفين والمواطنين الذين بواسطتهم سوف تتمكنون من مشاهدة المصانع والمعامل والدخول إلى مداخل لا تستطيعون أن تدخلوها بدون واسطة.

وكان يوجه كلامه إليَّ ويشرك فيه زميلي الأستاذ علي الحصين الذي هو في نفس الوقت أخو زوجة أبيه.

وما كدت أسمع ذلك الكلام حتى غشتني نشوة من الفرح والظفر وجعلت أقول لنفسي: يا ترى هل أنا في حلم أم في يقظة؟ حمداً لك اللهم يا رب على ما يسرت من أمر كنت أعده أعسر العسير.

وقلت له- مستطلعاً ما عنده- أنا يا عزيزي لا أتمكن من السفر إلى هناك في الوقت الحاضر لأننا كما تعلم موظفون في المعارف فأجابني قائلاً: هذا لم يغب عن بالي الآن، ولذلك فإنني أقصد بما قلت أن تمضوا العطلة الصيفية من هذا العام لدينا في الظهران.

فدعوت له وشكرت له تفضله العظيم وعرضه السخي شكراً حاراً.

وسافر صديقي هذا إلى الدمام بعد أيام وأنا بعد لم أصدق أنه يقصد بكلامه ذلك ما يدل عليه عن جد وظننته لا يعدو ضرباً من ضروب المجاملة التي يستعملها بعض الناس ذوو الجانب الرقيق لما يعلمه من محبتنا للإشراف على كل هو جديد.

وما أن أزف حين العطلة أن يحين حتى وردتني رسالة من صديقي هذا رسالة يستحثني فيها على القدوم ويقول إننا في انتظاركم وأرجو أن تبرقوا بتوجهكم.

فعند ذلك وعندما وصلني ذلك الخطاب تبينت أنه جاد في عرضه، وأن منشأ خطئي في عدم اعتقادي ذلك من قبل يرجع إلى أنني لم أكن أحيط بمواهبه الكثيرة ومزاياه النادرة وكرمه الحاتمي.

عزم:

وعند ذلك عزمت على السفر وحزمت أمري عليه ولبثت على أحر من الجمر منتظراً حلول العطلة الصيفية وهي تبدأ في اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان أي قبل دخول شهر رمضان المبارك بثمانية أيام و تلك أي الثمانية أيام مدة غير كافية للرحلة واتمامها أي الرحلة في رمضان- وهو يقع في فصل الصيف- أمر لا يتفق مع روح الرحلة التي الغرض الأكبر منها هو الاستفادة والاستجمام إذ لا يناسب الصائم في فصل الصيف إلا النوم والصلاة ولكنني حاولت أن أهدئ من روع نفسي بأنني لن أسافر في ذلك الموعد ألا بعد انقضاء شهر الصوم كما هو المتعين الذي لا يمكن غيره حتى حلت العطلة فكتبت لصديقي الشيخ محمد بن عودة أخبره بأننا تبينا أنه لا يمكن السفر إلا بعد انقضاء شهر رمضان وإننا سوف نسافر فور انقضائه بإذن الله.

وما كاد شهر الصيام تأزف ساعة انقضائه حتى سارع صديقي مرة أخرى إلى الكتابة لي مستنجزاً الوعد بالكتابة فوعدناه برحلتنا قريباً.

كتبت عند ذلك إلى قريب لي في الرياض كتاباً أرفقته بعريضة مني بصفتي مدير المدرسة المنصورية ببريدة إلى سمو ولي العهد المعظم الأمير سعود بن عبدالعزيز أعرض فيها أنا ورفيقي في الرحلة الأستاذ علي بن

عبدالله الحصين بأننا من رجال التعليم في بريدة وقد اضطررنا إلى الاستشفاء في الظهران ونرجو من سموه التكرم بالأمر باركابنا بالبريد الجوي ذهاباً وإياباً من الرياض إلى الظهران وبالعكس.

ولم ألبث غير مدة قصيرة لا تبلغ أربعة أيام أن تلقيت برقية من الرياض من قريبي ذلك الذي أرسلت إليه الكتاب يقول فيها ما يلي بنصه: (عملنا اللازم ولم نتحصل على نتيجة لأن النظام الأخير يمنع منه كل أحد).

ولقد أسقط في أيدينا عندما تلقيت البرقية، إذاً لابد من أن تكون أجرة الرحلة ذهاباً وإياباً على حسابنا الخاص وهي أجرة ضخمة نوعاً لأنها أجرة الانتقال بالجو إذا أنه لا يوجد واسطة نقل مريحة بين الرياض والظهران غير الجو.

أما السيارات وهي الواسطة للسفر الوحيدة غير واسطة الجو فهي علاوة على كونها غير مريحة ويتكبد المسافر فيها صنوف التعب والمشقة لا تخلو من الخطر لأننا نمر بمنطقة الدهناء تلك المنطقة الصحراوية الرملية التي طالما مات في أرجائها ركاب السيارات عطشاً عندما يضلون الطريق وتتعطل سياراتهم، ولكننا عزمنا على أن نسافر ونستعين بالله.

فإذا عزمت فتوكل على الله:

وتوكلنا على الله ومشينا من بريدة في صباح يوم السبت العاشر من شهر شوال سنة ١٣٧٠هـ في جوف إحدى سيارات النقل.

في الربيعية:

وبعد مضي ساعتين ونصف على تحرك السيارة بنا من بريدة وصلنا إلى قرية أو بلد إن شئت فهي أكبر من القرية قليلاً ومن المستحسن الذي لا يخالف الواقع أن نسميها قرية كبيرة.

وصلنا القرية الكبيرة قرية الربيعية ويقال لها أيضاً (روضة الربيعي) ونزلنا عند أحد الفلاحين الذين نعرفهم لتمضية وقت القائلة وبعد أن أذن العصر وصلينا عقدت يدي بأيدي اثنين من الرفاق ورحنا نتمشى في تلك القرية التي لم يسبق لي أن شاهدتها قبل ذلك.

والحقيقة أنني لم أكن أتصورها هكذا جمالاً وتقدماً في الزراعة لولا أنني شاهدتها بنفسي- وأعجبني على الأخص فيها اعتدال شوارعها الرئيسية حتى إنها تشبه بذلك مدينة بريدة على أن ذلك يبدو معقولاً إذا علمنا أن هذه القرية تجمعها ببريدة جامعة النمو السريع والعمارة الحديثة.

وكان مما لفت نظري في تلك القرية الكبيرة أن رأيت جهازاً هوائياً للراديو بارزاً كل البروز، مرتفعاً عن سطحه الذي قد أقيم عليه حوالي الثلاثة الأمتار حتى أصبح مرئياً لعموم أهل القرية، فتعجبت من ذلك وقلت سبحان الله هل يا ترى ستسبقنا- نحن معشر سكان مدينة بريدة- قرى بريدة في التمدن وسلامة التفكير وسعة الأفق؟

إن جهاز الراديو الهوائي في بريدة لا يستطيع صاحبه أن يرفعه إلى مستوى الحائط لأنه بذلك سيكون هدفاً لسرعة النقد والتجريح والتسفيه على اتخاذه الراديو اللهم إلا إذا كان قد رضي بأن يدفع ضريبة الراديو وجهازه الهوائي من سمعته ومكانته الاجتماعية.

وأعجبتني فيها أيضاً حالة الزراعة التي قد استعملت فيها المكائن الرافعة بدل السواني ونشاط المزارعين وكثرة النخيل ونضارتها تبعاً للقيام بصالحها تمام القيام من لدن المزارعين فيها.

ورجعت إلى رفاقي وأنا جذلان مما بلغته قرى بريدة آسف في نفس الوقت على أن تلك القرية قد سبقت المدينة الأم في ميدان التمدن والرقي الحديث بحسب الظروف والأحوال.

وغادرنا الربيعية قبل أن تغرب الشمس بقليل وواصلنا مسيرنا قرابة ثمان ساعات لم نقف خلالها غير مرتين إحداهما لكي نصلي صلاة الجمع بين

صلاة المغرب والعشاء والأخرى لكي نتعشى ونشرب الشاي وكل ذلك في الصحراء المسماة بالمستوى، ولقد كنت بجانب سائق السيارة فالهتني ثرثرته عن الاسترسال في خواطري وأحاسيسي التي تبعثها من مكمنها وتستثيرها من مرقدها سعة تلك الصحراء العربية التي جال في ربوعها الشعراء وهام في أوديتها المتيمون (كل يبكي على ليلاه).

وعجبت أول ما عجبت كيف تنبت مثل هذه الصحراء العربية شعراء رقيقي الشعور ومرهفي الإحساس وهي كما هو بديهي تضن على ساكنها بالعيش اللذيذ وتشح على القاطنين فيها بالماء البارد، وهذا إبان خصبها وخلال أيامها التي يكاد ينعتها العرب بالأعياد.

أما إذا أحمر السماء وشح القطر وصوَّح نبتها ورعي الهشيم حتى لم يعد هناك هشيم فإنهم يشتوون القد ويأكلون الجلود، والويل ثم الويل للضب ولو كان هزيلاً والويل ثم الويل لأبناء عمه المخلوقات الأخرى من بطن الأعرابي الجائع، إن ذلك ليثير عجبي ويسترعي استغرابي لاجتماع ذلك ثم لا يمنع ذلك أولئك الأعراب عن أن يكون منهم الشعراء والعشاق والظرفاء.

و استمر سيرنا هـذه المدة الطويلة ونحن نسير وقد مللنا ركوب السيارة وهكذا خلق الإنسان ملولاً يمل التعب ويمل الراحة ويمل النوم ويمل السهر.

نزلنا ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعة واحدة أو حواليها فأغفينا إغفاءة يسيرة انتبهنا منها على صوت أحد الرفاق يؤذن لصلاة الفجر فأسرعت بالقيام للوضوء وجلست في محل المسجد- وجميع الأرض مسجد- منتظراً حضور باقي الرفاق- لأنني كنت إمام الرفاق طيلة الرحلة.

وصلينا وواصلنا سفرنا بعد أن شربنا القهوة والشاي وقد أخذ منا السهر وبرد الصحراء كل مأخذ!!

في مراة:

ووصلنا مرات هكذا ينطقها العوام وهكذا ينطقها الخواص فقد ذكرها بهذا اللفظ عدد من مؤرخي نجد وغيرهم من الأجانب ذكرها هكذا بهذا اللفظ المؤرخان حسين بن غنام وبن بشر في تاريخ نجد والكاتب اللبناني أمين الريحاني وغيرهم، والصحيح في نطقها هكذا (مرأة) بلفظ المرأة شقيقة الرجل مأخوذة من اسم امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم من شطره الأول بعد زيادة تاءة مربوطة.

ولقد وهم بعض الكتاب المعاصرين حين ظن أنها مأخوذة من اسم امرئ القيس بن حجر الملك الضليل، ولقد حضرتني أبيات لذي الرمة كثيراً ما سمعت شيخنا عبدالله بن حميد ينشدها حين مر بقرية مرات أو مرأة.

فلما وردنا (مرأة) (...) غلقت دساكر لم تفتح لخير ظلالها
وقد سميت باسم امري القيس قرية كرام غوانيها (...) رجالها
تظل الكرام المرملون بجوها سواء عليهم حملها وحيالها

ونزلنا في محطة السيارات التي تتألف من حجر مبنية باللبن الرملي تتخللها بعض الحوانيت التي تبيع الأشياء الضرورية للركاب كالرز واللحم وبعض لوازم السيارات ونزلنا في غرفة من غرف الإيجار.

وبينما جلس بعض الرفاق يصلحون لنا القهوة والغداء انطلقت أنا وجماعة من الأصحاب إلى البلد القديم (مرأت) نتجول بين منازلها ونتفرج على حاراتها المهدمة وبيوتها التي تشبه الأطلال البالية، بل التي بعضها أطلال بالية حقيقة.

وقلت لبعض الرفاق: رحم الله ذا الرمة إنه لو رأى البلد نفسه ولو أتيح له أن تفتح له دساكر مرات لما لام أهلها على ما لامهم عليه.

وكانت بساتين مرات تلفت النظر من أمثالنا كثيراً ذلك بأنهم يسنون أي يخرجون الماء من البئر بواسطة الحمير وكثيراً ما كانوا يخصصون لها الشياب المسنين يسوقونها ويتعهدونها بالقيام بعملها على أنني لم أر كل البساتين لعل ذلك يكون من قبيل المصادفة فقد رأيت شائبين اثنين في بستانين مختلفين يسوقان حميراً قد أنهكها التعب والجوع فلم أدر أيهما أرثي أللحمير المصَخَّرة أم للشيبان المتعبين، وتمنيت لو كان ذو الرمة حاضراً حقاً لأنه لابد مغير رأيه في لوم أهل مرأة على إغلاقهم الباب دونه.

ولقد لاحظت ظاهرة غريبة في (مراة)، وهي تبدو غريبة لأول وهلة، تلك لون الذي ينزل في (مراة)، إذْ يتحول جميع المسافرين إلى اللون الأصفر، ولو كانوا قبل وصولهم إليها شقراً مثلاً أو وردي اللون ولعل السبب يرجع إلى تربتها الحمراء على أن ذلك ينقضه أنَّ هناك بقاعاً يميل لونها إلى لون الحمرة ولكنها لا تحيل لون نزلائها إلى الصفرة كما هو الحال في (مراة).

على أنني رأيت في (مراة) شيئاً آخر محسناً وساراً لمن ينظر إليه نظرة بعيد، ذلك يأتي رأيت نخيلاً في النخلة الواحدة من التمر ما يساوي الأرطال القليلة، وقد غلفه أهله بالخرقة البالية وحرصوا على صيانتها كل الحرص مع أن مثل ذلك القدر من الإنتاج عندنا في القصيم مما يبرر

التعجيل بروح تلك النخلة بل وجثمانها إلى النار ولو نار الدنيا ونار بني آدم.

وعند ذلك عندما رأيت ذلك الاعتناء بهذا القدر القليل من الثمرة شعرت بالكبرياء تغمرني وبالنشوة تستولى على عواطفي إذ شعرت بأننا معاشر أهل القصيم بالنسبة لأهل نجد كالبصرة بالنسبة لأهل نجد، ذلك لأن مثل ذلك القدر من التمر مما يعطيه الفلاح لغيره عن أن يحوطه برعايته التامة منذ أن لقح إلى أن يطيب أكله وما أكله بطيب بعد أن تبذل من أجله الجهود الكبيرة.

وإن النخل الكثير الذي يبلغ حوالي خمسين نخلة لا تكاد تبلغ ثمرته ألف رطل على حين أن النخلة الواحدة في القصيم تبلغ ثمرتها مائة وخمسين رطلاً في المتوسط.

أما أن ذلك الشيء شيء سارّ لمن ينظر النظر البعيد فلأنه ينم عن غريزة اقتصاد متوفرة، وهم لا شك من أهل نجد ويحق لنا معشر النجديين أن نفخر بمفاخرهم.

وغادرنا مرات بعد العصر وبعد أن وقفت السيارة في مركز التفتيش في مرات وواصلنا السير لا نلوي على شيء.

وبعد أن غاب الشفق الأحمر أو كاد أشار السائق إلى جهة اليسار من الطريق وقال هنا تقع قرية (البرة) قال هي قرية صغيرة، ولا شك أن حضرته عندما وصفها كان يستحضر في مخيلته صورة قرى القصيم النشيطة الآهلة بالسكان والمتزايدة بالعمران والتي تعد بالنسبة إلى مدن القصيم قرى وبالنسبة إلى قرى الجنوب جنوب نجد مدناً فتذكرت عند ذكر (البرة) قول يحيى بن طالب الحنفي الذي هجر وطنه (البرة) لضيق ذات يده وقصورها عما تطمح إليه نفسه.

خليلي عوجا بارك الله فيكما ... إلى البرة العلياء صدور الركائب
وقولا إذا ما هلهل القوم للقرى ... ألا في سبيل الله يحيى بن طالب

على أن صاحبي لا يعلم أي البرتين تلك البرة التي يعرفها وهل هي البرة العليا أو البرة السفلى، ولا يعلم أي تلك البرتين التي كتب لها البقاء هل هي العليا أو السفلى على أننا لا نعلم كذلك هل المغبونة هي التي كتب لها البقاء أم التي كتب عليها الفناء على أننا حتى لا ندري هل البرتان موجودتان الآن معاً أم لا.

وتذكرت عند ذكر البرة آحاديث كان أبي يحدثني بها عن أبيه رحمهما الله عن البرة وعن وقعة البرة التي كان هو رحمه الله أحد أفراد الجيش القصيمي الذي يقاتل تحت امرة أمير بريدة وتوابعها الأمير حسن بن

مهنا بالاشتراك مع جيش الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد أمير جبل شمر حينما كان الجيشان يقاتلان معاً أهل الرياض.

وواصلنا السير حتى قارب الليل أن ينتصف، وإذا بنا نصل خرائب مدينة العيينة، وهي آثار تدل على أن تلك البلاد قد بلغت شاؤاً عظيماً في الزراعة.

ولبثنا نمشي فيها بالسيارة طويلاً ولقد قدرت مسافة ذلك بخمسة عشر كيلومتراً.

ووصلنا الجبيلة قبيل طلوع الفجر وكان بودي لو أمكنني أن أشاهد الجبيلة التي حدثنا عنها المؤرخون كثيراً فاغتنمت فرصة اشتغال بعض الرفاق في النوم وإعداد الشاي وذهبت أتمشى فيما حولي من الآبار المعطلة والقصور الخربة وآثار العناية العظيمة، وتذكرت قول القائل:

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقد نظرنا إلى تلك الآثار ولقد عجبنا من أولئك الذين خلفوها ومن عظمة أولئك الذين خلفوها مع أن إمكانيات عصرهم لا تسمح لهم بأن يتوسعوا في العمارة والبناء إلى ذلك الحد الكبير.

كان أكثر البيوت مبنية بالحجر المنحوت على أشكال هندسية بديعة، وكان كل شيء في تلك الآثار يوحي بالبذخ والسرف وكأن ذلك الوادي العظيم الذي نشأت العيينة والجبيلة على حافتيه يتطاول ليقول إنني أنا

الذي أمليت عليهم ذلك البذخ الذي ترونه، وذلك السرف الذي تشاهدون آثاره، لأنني أمنحهم الماء العذب النمير وذلك يمنحهم كل شيء ألم يقل الله تعالى **(وجعلنا من الماء كل شيء حي)**.

وتركنا بليدة الجبيلة بعد أن أجرى مركز التفتيش فيها الإشارة اللازمة على أوراق السيارة وأوراق مرور الركاب أو جوازات سفرهم، وذلك بعد أن تعالت الشمس.

وعندما فارقنا الجبيلة صاعدين في الربوة التي تطل عليها سألت صاحبي السائق عن المكان المسمى (عقرباء) وهو المكان الذي جرت فيه الوقعة الفاصلة بين جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه ومن معه من الصحابة وبين جيش بني حنيفة أنصار مسيلمة الكذاب في حروب الردة، ويذكر بعض المؤرخين أنه روضة متسعة بين حزمين في ربوة تشرف على الجبيلة من الجهة الشرقية وهو بناء على ذلك ليس منا بالبعيد ولكنني لا أعرفه بالضبط.

وبعد أن صرنا نمشي قليلاً يقرب من الساعتين وبعد أن بلغ ما مشيناه اربعمائة وثمانية وعشرين كيلومتراً منذ أن فارقنا بريدة لاحت لنا أعلام:

مدينة الرياض:

وذلك يوم الاثنين ١٢ شوال عام ١٣٧٠ هـ.

وقفت بنا السيارة في ميدان (البطحاء) وكان الرفاق ينزلون امتعتهم، أما أنا فقد ذهبت تواً وقبل أن أنزل أمتعتي وبعد أن أكدت على رفيقي الأستاذ علي الحصين بأن يلاحظ متاعنا وفي حالة ما إذا كانت السيارة ستتحرك من مكانها فينزله من على ظهرها ويبق ريثما آتي.

ذهبت تواً قاصداً إلى مكان الدلاَّل الذي يتولى حجز الأماكن للركاب في السيارات لحجز مكانين لنا في أول سيارة تسافر إلى الأحساء متمنياً أن أجد سيارة تسافر الآن إليها، ولكنني وجدت المزار بعيداً كما يقولون وجدت أن الحكومة أي الملك وحاشيته يستعدون لمغادرة الرياض إلى الطائف تمهيداً للحج، وقال لي الدلال إنهم حجزوا من طريق غير مباشر سيارات الأجرة في الرياض حجزوها بواسطة الأجور المغرية.

ولذلك فإنه لا يوجد سيارة واحدة تولي وجهها شطر الجهة الشرقية إلى الأحساء أو الظهران.

ولكن الدلال لم يؤيسنا بل قال إن هناك سيارة واحدة فقط قد تسافر إلى تلك الجهة، وعليكم أن تراجعوني بعد عصر اليوم لأقول لكم إنها

عزمت على السفر أم لا، ولذلك فمن المستحسن أن تدعوا متاعكم حيث نزل فمن هناك سوف تسافر تلك السيارة إن هي عزمت على السفر، فوافقت.

وبينما أنا في حديثي معه إذْ بأحد اصدقائي القدماء وهو مدير إحدى المدارس بالرياض يسلم علي ويدعوني إلى بيته في تلك الساعة فتمنعت قليلاً ثم أجبته فذهبنا تواً إلى بيته واسترحنا لأول مرة تطأ أقدامنا الرياض في هذه الرحلة.

أول رحلاتي إلى الرياض:

وبهذه المناسبة أذكر أنه قد سبق لي أن زرت الرياض قبل هذه المرة مرتين أولاهما في عام ١٣٦١هـ في حياة والدي رحمه الله وسني آنذاك لا تتجاوز السادسة عشرة، ذهبت إلى الرياض لا لشيء إلا لزيارة الرياض لأن فيها بعض أقربائنا ولبثت شهراً ثم عدت إلى بريدة.

والثانية في عام ١٣٧٦هـ ألف وثلاثمائة وسبع وستين صحبة شيخنا عبدالله بن محمد بن حميد قاضي بريدة لمرافقته فقط بناء على طلب منه فلبثت فيها شهرين ويومين ثم عدت معه إلى بريدة وقد سبق أن كتبت كتابة عن الرحلة الأخيرة في حينها سميتها (رحلتي إلى الرياض).

ومدينة الرياض:

ولن أكتب عن الرياض الآن كمدينة لأن ذلك يشغلني عما أنا فيه خصوصاً وأنني قد تعمدت أن أوجز في الكلام خوفاً من التطويل الذي لا يفيد فائدة تعادل بعض ما يفوت بسببه.

ولكن يكفي هنا أن أقول إن الرياض كمدينة تبدو لي بشكل غريب شكل اعتقد أنه لا يكاد يوجد في غيرها من المدن في العالم لأنك ترى فيها المتناقضات جنباً إلى جنب، فأنت ترى فيها سمات الرفاهية في السيارات والحاجيات المعروضة، وأثواب النساء والرجال والعمارات الكبيرة إلى جانب مظاهر البؤس ككثرة المتسولين وأسمال الضعفاء والمساكين، إلى الأزقة والشوارع الضيقة والغبار الذي يكاد يثور من كل أرض تطؤها القدم في الرياض.

ترى في الرياض بعض الأنيقين أو على الأصح مدعي الأناقة فتجد عليهم من الثياب أغلى ما يمكن أن يوجد ولكنه بشكل ينفر عنه الذوق، ولا ينطبق على قواعد الفن يشمل ذلك الرجال والنساء فمدينة الرياض تشبه في حالتها الراهنة الشخص الذي قد نما نمواً غير طبيعي فأصبح ضخماً فقط.

هذا وقد ذهبنا إلى بيت ابن عمتي عبدالله بن محمد العبدان وهو كاتب أو مسئول في ديوان البرقيات في الديوان الملكي، فصرنا نأكل عنده وننام.

في مطار الرياض:

وبعد أن أيسنا من وجود سيارة تسافر إلى الأحساء أو الظهران وبعد أن لبثنا في الرياض مدة تقارب اليومين ذهبت إلى مطار الرياض للبحث لي ورفيقي في السفر الأستاذ علي بن عبدالله الحصين تذكرتين للسفر بالطائرة إلى الظهران وساعدنا على ذلك أحد الجماعة من أهل بريدة الذي أكرمني إكراماً زائداً، ولا أزال أذكر غرفته الخشبية التي أقيمت مؤقتاً حتى يتم بناء غرف للموظفين والعمال في مطار الرياض، ولكنها لا تنقص شيئاً عما يوجد في الغرف الحقيقية، فهي مزودة بالنور الكهربائي والمراوح الكهربائية وفيها مطبخ كهربائي وراديو على الكهرباء ومفروشة ومؤثثة آثاثاً جيداً وهذا الصديق هو عبدالعزيز أبو جفن.

وفي صباح الأربعاء ١٤ من الشهر حملنا قريبي أحمد بن محمد العيدان بسيارته الخاصة التي يقودها هو ومعنا أمتعتنا إلى مطار الرياض وانتظر معنا في المطار لمدة تقارب الساعة وقبل زوال الشمس بربع ساعة قال لي هل لكم

معرفة بمحمد بن علي الذيب؟ قائد الحرس الملكي؟ قلت: نعم، هو ابن عمنا، ووالدته كانت تأتي إلى بيتنا في بريدة.

قال: إذاً قولوا له إذا جاء بعد قليل إنكم ستسافرون بالطيارة من الرياض إلى الظهران ويركبكم فيها بلاش!

وجاء محمد الذيب ولم تكن بيني وبينه معرفة شخصية آنذاك، فقلت له: إننا نريد أن نركب بالطيارة إلى الظهران فسكت، وقال: يسهل الله.

وبعد قليل قلت له: متى نجيء لنركب؟ فقال: يا أخي، أنا ما أدري متى يصير لطويل العمر لازم بالظهران تقوم له طيارة، تعرف إننا ما نقوم طيارة لأجلكم، قلت: هذا صحيح.

فقال: خلوكم قريبين، وإذا تقرر قيام الطيارة أركبناكم معها.

وفعلاً لم تمض إلاَّ نصف ساعة حتى قال محمد الذيب: اركبوا هذ الطائرة وأشار إلى طائرة متوقفة وأرسل معنا من يخبر المسئول فيها، وربما كان الطيار وهو أجنبي أن يأخذنا معه، وذلك بالمجان.

وقبل زوال الشمس بربع ساعة تحركت محركات الطائرة التي تخفينا في حناياها ولقد حذرني بعض الأصحاب قبل ذلك من أن أنظر إلى الأرض وأنا راكب الطائرة ونصحوني بأن أربط نفسي في الرباط المعد لذلك وكرروا علي حتى كدت أخاف من ركوب الطائرة ولكن عندما استقلت الطائرة عن الأرض لم

أحس بشيء مما يقولون مما يخوفني به بل أحسست للطيران بمتعة عظيمة ونازعتني نفسي أن أنظر إلى الأرض وإلى الجو من نافذة الطائرة ولكنني تذكرت تحذيرهم فكففت ولكن الفضول استبد بي مرة ثانية فلم استطع أن أكف بل قلت سوف أنظر وليكن ما يكون ونظرت فلم يحدث إلا ما بودي أن يحدث لم يحدث إلا أن استمتعت متعة جديدة متعة نظر الأرض من تحتي وقد تواضعت الجبال المتغطرسة فيها حتى انقلب من تحتنا كل جبل شاهق إلى هوة عميقة ولقد انقلبت الكثبان والرمال الكبيرة العاتية إلى ما يشبه الخطوط في لوحة الرسام.

لقد سعدت جداً واستمتعت جداً بمنظر الجو ومنظر الجبال والكثبان والأرض من تحتنا ولقد تمنيت لو أن أولئك الرفاق المشفقين لم يحذروني من النظر إلى الأرض لأنظر إلى الأرض وهي تبتعد نازلة متقاعسة أمام بنت الريح الطائرة أو أمام بنت أفكار الإنسان ابن الأرض العاق.

لقد طرنا ما يقرب من نصف ساعة والجو جميل والأرض صافية نرى كل شيء فيها إلا أنه صغير ثم بدأ وجه الأرض يغبر وبدأت الطائرة تزأر زئيراً شديداً وتهتز اهتزازاً عنيفاً وصعب علينا ذلك واصعب بسبب الزئير العظيم وبدأ أحد الركاب ونسيت أقول إنه كان معنا في الطائرة ثمانية ركاب فقط لأنها طائرة البريد بين الرياض والظهران ليست طائرة ركاب بدأ يذبل عوده ويميل

رأسه إلى الأرض وكان يحدثنا قبل ذلك عن أنه قد ركب الطائرة قبل ذلك وأنه قد اعتاد ركوبها، فبدأت الخواطر تساور رأسي إذا كان هذا وهو قد اعتاد ركوب الطائرة يفعل معه الدوار هكذا فكيف يكون فعله معي وأنا الذي لم أركب الطائرة قبل هذه المرة.

وظللت أنتظر متى يصل دوري فيجتاحني الدوار.

ولكنني تذكرت أني ركبت السيارة لأول مرة وأن الناس الذين يصيبهم الدوار عندما يركبونها لأول مرةً جعلوا يحذرونني من الدوار ولكن الدوار لم يجد إليَّ سبيلاً لم يضر بي منذ أن حييت ولا أدري ما هو الدوار.

أذكر ذلك فيدفع من خواطر السفر في خاطري ولكن أذكر بعد ذلك أن دوار الجو ليس كدوار البر كما سمعنا وإن حركات الطائرة ليست كحركات السيارة كما جربت.

ويشتد الأمر برفيق الطائرة فيظل مربوطاً برباطه والماء يسيل من أنفه وفمه وجبهته أيضاً فأتفادى النظر إليه لكيلا أتأثر بمرآه.

ولكني التفت إلى ما ورائي، إلى أحد الركاب فأجده جالساً على مقعده بدون رباط أو حزام أو غير ذلك، أي بدون أن يظهر عليه أنه في طيارة تهزها الريح هزاً عنيفاً،وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال، وكأن

صاحبنا في منتزه من المنتزهات لم يتكدر ولم يقلق ولم يبن عليه شيء مما بدا على باقي الركاب فيقوي منظره قلبي واتعمد أن أكثر النظر إليه وإلى الأرض فقد وجدت النظر إلى الأرض ممتعاً، رغم أنني لا أكاد أتبين معالمها لشدة الغبار المتصاعد منها حتى أن الرمل فيها تحتنا ليموج كما تموج مياه البحار.

وعندما قاربنا الوصول إلى الأحساء وبعد أن مضى ما يقرب من الساعة على قيام الطائرة من الرياض هدأت العاصفة قليلاً وصرت أرى من خلال النافذة خطاً دقيقاً يشبه خط قلم الرصاص على ورق الكتابة وأحسست بأن الطائرة تهبط قليلاً وتحققت من ذلك عندما بدأ ذلك الخط يظهر لي أكثر من ذلك وعندما بدأ خط السيارة يظهر هو الآخر وكأنه قد خط بلون ترابي ولكن هل يمكن ان يكون هذا هو الأحساء وإنني لم أر نخلاً ولا بساتين ولا خضرة والإحساء ليس كذلك، وسألت أحد الرفاق فقال إن المطار في غرب الإحساء أنظر إلى هذه الجهة فنظرت فإذا بالخضرة وكأنها هي بقايا الليل المنهزم.

وبدأت الطائرة تقترب من الأرض ووجدت لذة كبيرة في هبوطها ذلك الهبوط التدريجي الذي جعلني أشعر كلما هبطت كأنني أهبط بنفسي

وتمنيت لو دام ذلك الهبوط ولكن ها قد ظهرت أرض المطار المفروشة بالإسفلت ولكنها ظهرت لا يكاد يدركها البصر لفرط سرعة الطائرة.

ووقفت الطائرة ونزلنا ولا أكاد أصدق بذلك.

هل أنا في حلم؟ هل وصلنا حقاً إلى الإحساء؟ هذه أول مرة أصل الإحساء لقد تحقق ما كنت أتمناه وكانت تلك اللحظة من الساعات المعدودات في حياتي لأنها جمعت فرحات كثيرة منها أنني واحد من القلائل الذين لم يتأثروا بركوب الطائرة لأول مرة ومنها أنني الآن في الأحساء لأول مرة وهذا هو مطار الأحساء مطار عاصمة التمور.

مطار الهفوف:

ويبدو كأنما فارقه جميع سكانه فلم يتقدم لنا عندما وقفت الطائرة غير رجلين أحدهما تسلم البريد والآخر كان معه، وكان معنا رجل واحد يريد النزول في الأحساء.

وسألت أحد الرفاق عن المدة المقررة للبث البريد في الأحساء أي طائرتنا فقال إنها ربع ساعة، إنها لمدة قليلة، ولكنها كافية لكي نتجول في المطار و كانت الشمس الحارقة تلقي من أشعتها سياطاً على رؤوسنا لا عهد لنا به ولا قبل لنا بمثله، لقد كنت أظن قبل ذلك أن مكة هي أحر بلد في الدنيا لأنها هي عندنا معشر سكان نجد مضرب المثل في الحرارة

ولكننا الآن رجعنا عن ذلك لقد أيقنا أن الإحساء بالنسبة لمكة كمكة بالنسبة لنجد، و ذهبت لكي أتجول ولكن هيهات، إن الشمس لا تسمح لنا بأن نتعدى الظل فاسترحت قليلاً ثم.

عدنا إلى الطائرة:

وحلقت بنا الطائرة فوق الإحساء، وهناك فقط ظهر لنا الإحساء أروع ما يكون منظراً، خضرة شاملة تضرب إلى السواد ولكننا لا نميز منها سوى الخضرة.

أما نفس مدينة الأحساء فهي تظهر من الطائرة وكأن منازلها اللعب أي أن البيت يظهر كأنه كومة صغيرة من تراب والنخيل والأشجار وكأنها الزرع في أول عهده بالحياة وهناك بعدما فارقنا سواد الأحساء ظهر لنا بعض النخيل المنفردة تشبه النخلة الواحدة في منظرها شوكة السعدان، ولكن المنظر بديع فلا يفارق بصرك الخضرة والنبات بخلاف المنظر في الأرض التي مررنا بها ما بين الرياض والأحساء فهي كلها جرداء لا تعرف للخضرة لوناً.

لم نلبث طويلاً بل خلته ربع ساعة رأيت ما يشبه المستنقع الأخضر الصغير يلوح أمامنا فتعجبت ماذا يكون هذا المستنقع؟ الأحساء قد

تجاوزناها والظهران لم أسمع عنها أن فيها مثل ذلك ولكن تبين لي أنه البحر.

أي والله إنه جانب البحر لقد حسبته أول الأمر مستنقعاً صغيراً، و هو يظهر كذلك ولقد حامت الطائرة فوقه وقتاً قصيراً صارت تراودني وأنا أخالسه النظر، أفكار طالما ساورتني فور ركوب الطائرة.

تلك الأفكار تمجد بطولة أولئك الذين أخترعوا الطائرة وبطولة أولئك الذين يحاربون في جوف الطائرة وعليهم أن يتقوا ضربات من فوقهم ومن تحتهم وأن يصيبوا أهدافاً غاية في الدقة تصعب إصابتها على من يركب الأرض لا من يركب الجو، أفكر في ذلك راجياً لأبناء قومي العرب أن لا يحرموا من تلك البطولة وأن يكون لهم من هذا الشرف أكبر نصيب.

وكانت الطائرة تهبط كذلك ببطأ وتحققت بعد ذلك أن تلك الأشياء التي أراها وكأنها الأمتعة الملقاة يشبه لونها لون الأرض هي المنازل والمكاتب التي على حافة مطار الظهران.

ونزلت الطائرة ومست عجلاتها أرض المطار وكان غاصاً بالطائرات من كل لون وحجم، والغريب أن الطائرات فيه تذهب وتعود هذه صاعدة وتلك نازلة والأخرى تتحرك لتطير والأخرى تحوم لتنزل ولكن الأغرب من ذلك أننا فقدنا صوت الطائرات، فبعد أن كان

صوت الطائرة يزعجنا لشدته وعظمته أصبح الآن وكأنه شيء لا يزيد عن صوت السيارة.

وشهدت ما لم أشهده قبل ذلك، شهدت العشرات من الرجال الأجانب يذهبون ويجيئون هذا يركض وذاك يمشي. و الآخر يتكلم وغيره يصوت، ولو كانوا عرباً لما كان في الأمر ما يعجبني أو يلفت نظري، ولكن أولئك جميعهم من الأجانب وأغلبهم أمريكيون، وكانت حركاتهم وسكناتهم وكلامهم جديداً عليَّ.

أمريكا العربية:

وهذا بحق ما يستحق أن يسمى الظهران به لقد هبطنا في المطار ونزلنا من الطائرة وجاء إلينا مأمور البريد وشخص آخر أخذ جوازات الركاب وأوراق مرورهم، وقد أخذنا من بريدة أوراق مرور إلى الظهران عن طريق الرياض ولكنها بدون صورة.

وأسرعت سيارة لتحمل متاعنا إلى الجمرك: جمرك المطار وعاينه مأمور سعودي، أما الرجال الواقفون والرجال المتحركون فكلهم أجانب وأمريكيون.

ولبثنا قليلاً واقفين وأولئك الأمريكيون يدخلون ويخرجون وكأنهم لا يشاهدون شيئاً، فهم لم يحملقوا فينا كما كنا نحملق فيهم، بل كل واحد منهم يظهر وكأنه لا يشاهد في الوجود غير نفسه.

وأردت أن أشرب فقد عطشتنا الطائرة فطلبت من أحد الشرطة وليس هناك شرطي غيره أن يدلني على ماء أشرب منه فأشار إلى باب قريب قائلاً أدخل في هذا الباب تجد الثلاجة أمامك فاشرب فدخلت أنا ورفيقي، ولكم كانت دهشتنا عظيمة حتى لقد جعلنا نتحسس أنفسنا هل أصبنا بشيء.

لقد كانت الغرفة محسنة بآلات تكييف الهواء التي لم أرها من قبل أبداً ولم ندخلها قبل هذه المرة، وكانت الغرفة محكمة الإغلاق كما هو الشأن في أمثالها إلا أنها تضاء بواسطة الكهرباء، لقد انتقلنا من الجحيم إلى النعيم أو من القيظ إلى الشتاء بمجرد أن طرقت أقدامنا أرض تلك الغرفة، وهذه الثلاجة كما وصفها الشرطي ولكن كيف نشرب منها؟

إننا لم نستطع ولا ندري الطريقة التي نأخذ بها لنجعلها تسمح لنا بما يبل حلوقنا من الماء عقب ذلك الحر الشديد.

ولحسن الحظ دخل أحد الخدم من العرب فسألناه كيف نشرب؟ فضحك ثم ضغط على أسفل الثلاجة برجله فنبع الماء من أعلاها وقال هكذا فافعلوا.

عجائب وذكريات وخواطر:

وعجائب الظهران وذكرياته وخواطري فيه كثيرة لا تحصر، ولو ذهبت أحاول أن أذكر أكثرها لطال بي المقال بدون أن أذكر بعضه ولكنني هنا أشير إلى بعضها كتذكار لما شاهدته فقط.

عدنا إلى حيث متاعنا وإذا بالسيارة التي حملت متاعنا وبعض رفاقنا من الطائرة يحضر سائقها واحد الموظفين يقول هذه ستنقلكم إلى الخبر فقلنا: إننا نريد الدمام فقال: إن سيارات الأجرة كثيرة وكنا قد سمعنا بذلك من قبل وسرنا في طريق معبد من مطار الظهران إلى:

الخبر:

وصلنا مدينة الخبر بعد ما يقرب من خمس وعشرين كيلو وقصد سائق السيارة وكان شاباً يقول إنه دوسري من الدواسر الجماعة التي أنشأت الدمام الأول وسكنت فيه في أكواخ من القش، لم يزل بعضها باقياً حتى الآن.

قصد سائق السيارة محطة لسيارات الأجرة وإذا بالمنادي ينادي كل على سيارته الدمام، الدمام، فقال لنا سائق سيارتنا وكان قد ألفنا وألفناه بعد أن جلست بجانبه في الطريق من مطار الظهران إلى الخبر قال: أولى لكم أن تركبوا هذه وأشار إلى إحدى السيارات قال لأنها قد تمت حمولتها.

ونزل سائق سيارة الأجرة فأنزل أمتعتنا بيده وحملها إلى سيارته وسار قاصداً الدمام ولم تزد اقامتنا في المحطة، وبالتالي بالخبر أزيد من ثلاث دقائق وخرجنا من المدينة على خط يبدو أنه معبد وهو يسير بحذاء البحر ويخترق بعض المزارع وبعض الأشجار الصغيرة والنخل الذي قد نما بدون أن يتعهده أحد.

وكان الطريق جميلاً لمحاذاته للبحر من جهة واستواء أرضه من جهة أخرى، وبعد أن قطعنا في هذه الطريق مسافة قصيرة وصلنا إلى:

الدمام:

وقلنا لصاحب سيارة الأجرة التي أقلتنا: هل تعرف المحكمة؟ قال نعم، قلت فلتقف عندها.

ووقفت بنا السيارة في حوالي الساعة السابعة والنصف حسب التوقيت الغروبي عند باب المحكمة ودخلنا فسلمنا على صاحبنا الشيخ محمد بن عودة، فلقينا بالبشر والترحاب والكلمات العذاب التي لا

تستغرب إلا لو صدرت من غير الشيخ محمد العبدالله العودة وكذلك استقبلنا من حوله من أسرة المحكمة من كتاب وموظفين وغيرهم وكان الحر الشديد يكاد يفتك بأعصابنا لأننا لم نر مثل ذلك الحر منذ أن رأينا الدنيا، ولكن أخلاق الشيخ محمد العبدالله العودة تلطف ما حولها أيضاً.

وبعدما استقر بنا القرار وأحضر لنا أكواباً من عصير البرتقال المثلج فشربنا منها حتى روينا فكأنما كشف بذلك عن وجوهنا النقاب فأخذنا ننظر للدنيا على غير ما كنا نبصرها قبل ذلك، وهذا هو أول ما تناولنا بعد فطورنا منذ صباح اليوم في الرياض.

إلى البحر:

لقد رأيت البحر قبل هذه المرة في جدة في الحجاز ولكنني لم أدخل بعيداً فيه لأن البحر غير نظيف لأن جيمع فضلات البلد تلقى فيه وقد جعلته لذلك يبدو منتناً كريه الرائحة والمنظر، أما البحر النظيف ماؤه فهو بعيد، ولذلك فقد سررت جداً عندما قال لي مضيفنا بعد صلاة العصر: هيا بنا إلى نزهة في البحر، وسرنا على أرجلنا وجعلت أنظر إلى الدمام وأنا أسير بين شوارعها فلا يزيد ما لاحظته فيها على ما لاحظته أول مرة وطأت أقدامنا أو أقدام السيارة التي نمتطيها على الأصح فيها.

ذلك هو أن الدمام مدينة لا تزال طفلة فهي واسعة الرقعة ولكن جزءاً كبيراً فيها غير مسكون لأنه لا يزيد على أن يكون آراضي مسورة فقط لا نازل فيها، ولا منازل، وهي كذلك تتخللها الشوارع الواسعة المنسقة، ولكن تلك الشوارع تحفل بالمارين وبالسيارات كما تحفل بذلك الشوارع في المدن التي لا تبلغ رقعتها مقدار رقعة مدينة الدمام وذلك بسبب ما ذكرت أي كونها مدينة حديثة يؤمل أن تصبح مدينة كبيرة مهمة، وهذا هو ما حمل بعض الناس على احتجاز أراضٍ فيها كثيرة وتسويرها بدون أن تبني فيها المنازل.

كان اليوم هو اليوم الرابع عشر من الشهر ولذلك فالبحر قد كاد يبلغ أشده في المد حتى أصبح يغسل أقدام المدينة ليس بينه وبين بعض بيوتها إلا أقل من المترين، ولكنه ماء ضحل غير عميق لا يكاد يصل ارتفاع الماء فيه إلى أعمق من نصف المتر وبمجرد أن لفظنا أحد شوارع المدينة قبض صديقي على يدي وسرنا نخوض في الماء قاصدين قصراً أشار إليه صديقي بيده قائلاً: هنا أثر من الآثار أحب أن أريكم إياه.

وكان يبدو عائماً في الماء من بعيد إلا أننا عندما وصلناه وجدناه قد أحيط ببعض الطين الذي قد أبعد عنه الماء بعض الشيء.

دخلنا ذلك القصر الكبير فوجدناه قد شيد من أربعة أدوار وقد شيد ليكون قلعة لا قصراً فهو ليس له إلا باب واحد خفي في أسفله لا يدخل

الرجل منه إلا منحنياً وأمارات القدم واضحة عليه، وقد كان بجانبه عين ماء عذبة تفيض إلى البحر وهي لا تبعد عنه أي البحر أكثر من عشرة أمتار، كما أنها واقعة بفناء ذلك القصر.

وعندما سألت عن ذلك القصر بعض من تعنيهم مثل تلك الأمور قيل لي إن هذا هو قصر الدمام، وهو قصر قديم لا يعرف من بناه على وجه التحقيق إلا أنه كان موجوداً منذ أكثر من مائة وخمسين سنة، وقد تداولته الأيدي، وكان يسيطر على الدمام وما حوله من يسيطر عليه،و هو يقع على شاطيء البحر إلا في وقت المد فإن الماء الضحل يحيط به من جميع جهاته.

قلت: وقد ذكر المؤرخ ابن بشر في بعض الحوادث أثناء حكم الإمام فيصل بن تركي أنه غزا ونزل قصر الدمام بعد ما أخذه ورتب فيه سرية، وذلك منذ أكثر من مائة سنة.

القطيف:

قلت لأحد أصحابنا: لابد من رؤية القطيف، قال: إنها مدينة وبيئة وإلا فالسبيل لزيارتها سهل ميسور وما بيننا وبينها إلا مسيرة ريال واحد.

قلت: ولكن يكون ذهابنا في الضحى وقت هجوع البعوض الذي ينقل الملاريا من دماء أهالي القطيف المرضى إلى الوافدين الأصحاء.

وهكذا ركبنا التاكسي- في الضحى الباكر وأقمنا في القطيف مدة ساعة كاملة تجولنا خلالها في المدينة لأننا لم نثن فيها أقدامنا.

وإذا علمت أن القطيف كثيرة المستنقعات والمياه السارية المتسربة أدركت عظم الحاجة فيها إلى النعال.

ولا ينبغي أن ننسى في هذا المقام أو نغفل عن تاريخ القطيف الأدبي الحديث والقديم، فالقطيف أنجبت شعراء ومفكرين كان لأدبهم وانتاجهم قبول أكثر مما حصل الآن.

تجولت في جميع أسواق المدينة وذكرني جلوس النساء على جانبي سوق الخضرة وهن جالسات على الأرض مستندات على الحائط يعرضن بعض بضاعتهن من الخضرة ذكرني ذلك بمثيلاتهن في بريدة.

أما نظرات العامة ففيها الإجلال والاحترام لأنهم يرون أننا حاكمون أو قريبون من الحاكمين.

وعندما فارقنا القطيف عائدين بسيارة أجرة أخرى كانت تلوح في عرض الخليج العربي نخيل (دارين) فتذكرت البيت الذي طالما ردده لنا المدرسون في النحو:

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ... ويرجعن من دارين بُجْرَ الحقائب

أي مليء الحقائب.

ولم نتزود من مدينة القطيف إلا بقليل من الرطب والتين والباميا، وقد غسلنا الجميع غسلاً كثيراً لأن كل من في القطيف مصاب بالملاريا، حسب ما قيل لنا.

وعلى ذكر الباميا والتفاح والرمان أقول: إن الجميع يباع في القطيف عداً أي ليس وزناً فمائة الرمانة بكذا و مائة الرأس من الباميا بكذا إلخ.

في مدينة الظهران:

دعانا صديقي الضابط عبدالعزيز الأحيدب وهو ضابط في الشرطة، ويشغل وظيفة (مفوض تحقيق في الظهران).

أقول: دعانا إلى قضاء سهرة في بيته مع صديق الجميع الشيخ محمد العودة السعوي وكيل قاضي الدمام.

وعندما صلينا العشاء ركبنا السيارة من الدمام إلى الظهران، فوصلنا بعد خمس وعشرين دقيقة، وكان صديقنا في انتظارنا كان بيته جميلاً أنيقاً وإن كان أكثره من الخشب، وقد أقامته الشركة العربية الأمريكية للزيت ومزود بكل ما يلزم من الكهرباء والماء.

كان صديقنا عبدالعزيز الأحيدب المذكور أديباً لطيف المعشر- رقيق الحاشية حلو الحديث، وقد امتدت بنا السهرة في كتب ومخطوطات ومذاكرات أدبية يعرضها علينا.

وقبل الفجر اقترح لنا صاحبنا أن نسجل كلمة إما من كتاب أو من غيره لتكون تذكاراً لهذا الاجتماع وقد سجلنا على الشريط كلمة تذكارية، وعندما انقضى الليل ولم تنفض سهرتنا صلينا الفجر ونمنا.

وبعدما فرغنا من النوم بعد طلوع الشمس بحوالي الثلاث ساعات كان خادم صاحبنا يعتذر إلينا بالنيابة عنه لأنه ورده أمر حكومي مستعجل بأن يطير حالاً إلى رأس مشعاب ليحقق في حادثة قتل، وقد ترك لنا سيارته لنتجول عليها في مدينة الظهران.

تجولنا في بعض مكاتب شركة الزيت العربية الأمريكية، ولا أستطيع أن أصف أثر تلك المكاتب الجميلة في نفسي وأنا أراها لأول مرة، ولكن الذي أراه أن من يبني مثلها ويسكن مثلها جدير بوصفه باسم الإنسان المحترم، وكذلك بيوت وشوارع مدينة الظهران الأمريكية، فالبيوت غارقة في الخضرة والزهور وهذه الخضرة المحيطة بالبيوت منسقة تنسيقاً بديعاً حتى إنها تؤلف مع البيوت قطعاً فنية رائعة تدل على الذوق

الرفيع، والشوارع فيها متشابهة لا يفرق بينها إلا سعتها فليس هناك شارع أو زقاق محروم من الخضرة أو المنظر الجميل الذي يسر النفس.

وعندما انتهينا من التجوال في بعض شوارع الأحياء الأمريكية ذهبنا إلى أحياء مساكن العمال العرب، فكان الفرق بينها وبين مساكن الأمريكيين كالفرق بين بلاد الولايات المتحدة الأمريكية وبلاد العرب من جميع النواحي.

وليس العيب في نظري أن يكون المرء أقل من غيره منزلة في وقت كان لا يشعر فيه بنقص ولكن العيب كل العيب في أن يعرف نقصه ولا يسعى للتخلص من النقص، وهو قادر على ذلك متمكن منه، كما قال أبو الطيب المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

ثم عدنا إلى الدمام.

مفارقات اللغة:

والمراد بمفارقات اللغة تسميتها لأشياء مختلفة باسم واحد، وذلك أنني عندما تجولت في بعض مساكن الأمريكيين ومكاتب شركة الزيت العربية الأمريكية عجبت أعظم العجب من إتقان وضع الأبواب في حيطانها فهي محكمة الإغلاق لا تدخل القرطاسة أو جناح الجرادة ما بينها وبين الحائط

حتى إننا لا نعرف الباب من الجدار إلاَّ بصعوبة لكوننا لم نتعود عليه، ولكونه لا تدخل منه حتى النملة إذا أغلق.

ومع ذلك يسمى (باباً) وفي بلادنا النجدية نجد أن بعض أبواب البيوت من الخشب تدخل منها القطط من الأسفر والأعلى وهي مغلقة، وبعضها فيه خرق وبعضها سد الخرق فيها بخشية ليست في الشكل ولا في اللون مجانسة لخشبة الباب، والباب كله ليس مجانساً للجدار، لأن الجدار من الطين المتهالك بفعل الزمن، ولونه يبدو في بعض الأحيان في لون الرماد.

أما ما يدخل منه، ومن يدخل منه فإن أبواب بيوت الشركة في الظهران يدخل منه الآدميون، وأما أبواب البيوت في نجد فيدخل منها الآدميون، و قد يدخل منها حمار او بعير، وأما الغنم وبخاصة من المعز فإنها كثيرة الدخول والخروج منها.

وقلت للذين معي: أليس من المفارقات اللغوية أن تسمى أبواب البيوت والغرف هنا أبواباً وتسمى أبواب بيوت الطين التالفة أبواباً، مع أنه لا يجمع بين النوعين جامع من لون ولا صفة ولا تكلفة ولا صيانة؟

العمال القذرون:

مررت بمجمع سكني في باحته بركة للسباحة عليها كتابة بالإنكليزية: ذكر لنا أحد الإخوة المرافقين معناها أنه يمنع العمال والعرب من استعمالها، وعندما استقصيت الأمر فسرها لي بأنه يمنع غير أهل هذا المجمع من أن يسبحوا في هذه البركة، وقال المرافق: إن المراد بذلك العرب والعمال لأنهم غير نظيفين.

فقلت: الأمر مختلف فهي حسب قولهم كالبيت الخاص الذي لا يجوز دخوله إلاَّ لمن أرادهم صاحب البيت.

مع العلم بأن أكثر العمال وفيهم هنود وأجانب من غير العرب لا يعتنون بنظافة ملابسهم بل ولا بمظاهرهم.

السِّلَع المسعرة:

مررنا بمكان صغير يبيع المياه الباردة والغازية، تعجبت من نظافته، وقال لي أحد المرافقين: إنك لو رأيت متجراً في الظهران لعجبت من كون جميع السلع فيه مسعرة لا يزيد البائع السعر على أحد دون أحد، ولا يسمح بمناقشته في سعر السلعة.

ولذلك لا مناقشة من يشتري منه لأنه إذا لم يعجبه سعر السلعة المكتوب عليها تركها.

فاستثار ذلك- والله- عجبي وإعجابي، وقلت ما سمعته من أكثر من واحد من بني قومنا وهو أن المؤمن يبيع ويشتري حتى يعرق جبينه.

ذلك لكون أرباب السلع يطلبون أكثر من قيمتها أول الامر ليقينهم بأن المشتري لابد أن يطلب تخفيض ثمنها.

وقلت: حبذا لو وجد عندنا مثل ذلك مع أنني أعلم أنه يحتاج إلى مرانٍ وتعودٍ من البائع والمشتري.

السفر إلى البحرين:

قال لنا الشيخ محمد بن عبدالله بن عودة السعوي حفظه الله ونحن في ضيافته في الدمام وهو يعلم مثل غيره أننا وأمثالنا لم نزر البحرين من قبل: هل لكم في زيارة البحرين؟

فقلت له: إنَّ هذا ما نتمناه إذا كان ممكناً، فأجاب: هو ممكن إن شاء الله، ثم أرسل أحد موظفي المحكمة إلى مدير الجوازات في الدمام وأخبره أنه يريد أن يسهل زيارتنا للبحرين.

وقال لنا مدير الجوازات في الدمام وهو في الوقت نفسه مدير الجوازات في الظهران وما حولها، هل لديكم جوازات؟

قلنا: لا، فقال: نعطيكم ورقة مرور، ولكن لابد من التصوير لأنه لابد لورقة المرور التي نعطيكم إياها من صورة.

وهكذا كان، فقد أخذ لكل واحد منا صورة الغرض منها أن تلصق بورقة المرور التي سنحملها في سفرنا إلى البحرين.

وعندما رأينا الصور وهي أول مرة يرى فيها الواحد منا صورته لم نكن نتخيل أننا كذلك، لأن هذه أول مرة نرى صورنا، واعتقدنا أنها مخالفة للواقع فقلت لصديقي وزميلي في الرحلة الأستاذ علي الحصين: ألا تشبه أنت في هذه الصورة فلاناً؟

وفلان ذلك شخص مكروه نكرهه جميعاً، فقال: وأنت ألا تشبه فلاناً؟ وهو شخص مكروه أيضاً.

والحقيقة أن التصوير كان رديئاً إلى درجة تقتضي ذلك، فقد شوه وجه الأستاذ علي الحصين مع أنه ذو وجه جميل، وطلعة مشرقة، ولو أن رجلاً اختار عشرين من أجمل شباب بريدة لكان الأستاذ علي الحصين أحدهم.

كنت مسروراً جداً وأنا أفكر في زيارة البحرين لأنني سوف أسافر أول مرة إلى الخارج، أي خارج المملكة العربية السعودية، ولأن السفر سيكون للبحرين الذي كنت قد سمعت عنه أشياء مخالفة لما هو عندنا في

بلادنا، وبخاصة من مدلولات تلك الكلمة الخبيثة، كما يسميها العوام عندنا الذين يسافرون إلى الخارج وهي (الحرية) التي لا يرون فيها إلا أنها حرية المرأة في أن تهجر أهلها وأن تفعل ما تشاء من دون أن يستطيعوا أن يعملوا شيئاً لردها إلى الصواب، وهي حرية الرجل في أن يمارس ما شاء من الفواحش، وذلك عرفوه من الحرية في بلاد تركيا وفي الهند.

وأردنا أن نرى تأثير ذلك على الناس في البحرين، لأن البحرين كانت كما كنا نعتقد آنذاك مستعمرة إنكليزية.

وكانت تأتينا قبل ذلك أخبار لم نألفها، منها أحاديث عن دعاة النصرانية الذين يسميهم الناس المبشرين وكيف كانوا يسعون إلى تضليل المسلمين وإخراجهم من دينهم، إنْ لم يستطيعوا أن يجعلوهم نصارى، وكيف كانوا يلقون الشبه في نفوسهم، كما حدثنا عن حمد الصقعبي أنه رأى أن واحداً من هؤلاء يشيع الشبه بين المسلمين فأخذ على نفسه أن يفضحه، وكان ذلك المبشر له مجلس فحضر الصقعبي مجلسه وسمعه يقول ويكرر قوله بأن الدين المسيحي يعتقد بثلاثة أرباب: الله ومريم وعيسى، والمسيحيون يعبدون هؤلاء الأرباب الثلاثة ثم يقول: والمسلمون يعبدون واحداً فالذي يعبد ثلاثة مصيب أكثر من الذي يعبد واحداً لأن الثلاثة أكثر من الواحد.

فقال له حمد الصقعبي بعد أن سكت المبشر فترة: يا فلان، أنت من أي بلد؟ فقال: من بلاد الإنكليز، فقال له الصقعبي: كم لبلادكم من ملك؟ فقال المبشر: واحد، فقال له حمد، الملك الواحد قليل عليكم وأنتم بلاد عظيمة لها مستعمرات كثيرة، بل الأفضل أن يصير لكم ثلاثة ملوك!

فقال الرجل وقد نسي ما كان يقوله عن الأرباب الثلاثة: ثلاثة ملوك ما يصلح.

فقال الصقعبي: لماذا؟

فقال الرجل، لأنهم يتخاصمون، وتختلف آراؤهم فيفسد الملك.

وعندئذ رفع حمد الصقعبي صوته قائلاً: اسمعوا يا الحاضرين، هذا الرجل يقول: إن مُلك الإنكليز يفسد إذا كان لهم ثلاثة ملوك وهو ينادي بأن الدنيا كلها والناس كلهم يكون لهم ثلاثة أرباب مع أنه لو كان للكون ثلاثة أرباب اختلفوا وتنازعوا وفسد الكون!

سافرنا إلى البحرين على سفينة تسير بمحرك وهي مكشوفة ليس عليها أي غطاء إلا لبعض سطحها من الشراع، ودفعنا الأجرة ثلاث روبيات فضية، لأن السفينة لقوم من البحرين الذين يتعاملون بالروبية.

وهي صغيرة، ولكن مجرد الركوب فيها وسيرها بنا على متن الماء لأول مرة مما أثار عجبنا واستغرابنا، بل وطربنا، وإن كنا تحدثنا فيما بيننا عما إذا انقلبت هذه السفينة أو غرقت، و لم نعلل في أنفسنا سبب غرقها، ولكننا اقتنعنا بأنها يمكن أن تغرق فماذا نصنع ونحن لا نحسن حتى السباحة ولو أحسناها كيف نستطيع أن نقطع المساحة كلها إلى اليابسة؟

ودعونا الله أن يكفينا الشر وأن يوصلنا البحرين سالمين.

في البحرين:

وصلت السفينة إلى البحرين فأرست في ميناء مكشوف أي ليس عليه بناء وتقافز منها الركاب ومنهم نحن، وكنا على غاية من المتعة بركوب البحر لأول مرة وبخاصة أننا لم نصب بدوار البحر، وكان الذين ركبوا البحر قبلنا من جماعتنا قد أخبرونا أن دوار البحر يسمونه الدوخة يصيب من يركب البحر لأول مرة، وذلك أن السفينة كان الجزء الأكبر منها مكشوفاً، وكانت تسير في الهواء، وكان البحر ساكناً لحسن حظنا.

كنا أول الواصلين النازلين في الميناء، فلم يستقبلنا أحد من الموظفين فسلكنا طريقاً نادانا أحد الموظفين قائلاً (هني) بمعنى هنا ولم نكن التفتنا إليه، فعدلنا عنه إلى طريق آخر، وذلك كله على البر، فقال آخر (هْني) فتوقفنا حتى أرشدونا (وهني): هنا بلهجتهم.

ولم يكن لدينا أية مشكلة لذلك انتهينا من الميناء بسرعة، وركبنا سيارة أجرة إلى وسط (المنامة) حيث كان أحد الإخوة في الدمام ذكر لنا اسم فندق فيها مناسب.

وصلنا الفندق فكانت أجرته ثلاث روبيات في الليلة وهو في وسط المدينة.

أين النواب؟

يقع الفندق في سوق البيع والشراء في البحرين لذلك كان بقربه دكان يبيع الأسطوانات التي سجلت عليها أغاني الخليج، وقد كان غناؤها مستمراً من باب الإعلان عنها، وعالي الصوت فقال أحدنا لصاحبه (وين النُّواب عن هؤلاء؟) وقال الآخر: وين الإخوان وطلبة العلم عنهم؟

وقد استعرضنا مشهد هذه البلدة الغريبة علينا فصرنا نسير فيها وإذا بنا نخرج منها فجأة فهي ليست كبيرة.

السينما لأول مرة:

انا وصاحبي شابان فأنا في الخامسة والعشرين وهو في الحادية والعشرين، وكنا نقرأ في الجرائد والمجلات المصرية التي نشترك فيها وتأتي إلينا بصفة مشتركة إلى بريدة أي باسم محمد بن ناصر العبودي

وعلي بن عبدالله الحصين، فليس لكل واحد منا مجلة خاصة به وكذلك الكتب الأدبية التي نشتريها هي بيننا.

وقد مررنا بدار للسينما أي للعرض السينمائي فتشاورنا في الدخول إليها لأننا نعرف من قرءاتنا أنها صور مجسمة، وأنه ليس فيها محذور غير أن الذين لا يعرفونها كذلك من جماعتنا يشددون النكير ليس على من يدخلها في بلادنا لأن ذلك غير ممكن ولا متصور، ولكن على من دخل إلى دارها أو رأها في الأمصار.

فعزمنا على الدخول إليها وعدنا للفندق حيث خلعنا ما على رؤسنا لم نبق إلا الطاقية وذهبنا لندخلها ولكننا وجدناها مغلقة، وقال أحد المارة إنها لا تفتح إلا في الساعة كذا بعد العصر، وجئنا إليها بعد العصر ودخلنا وكأنما كانت الأعين كلها تراقبنا مع أنه لا أحد سوف يفعل ذلك، لأنه أمر طبيعي عندهم ونحن من الشباب.

وقد بهرتنا السينما وعجبنا من سعة شاشتها وكونها ناطقة حتى يخيل إلينا في مرحلة من مراحل العرض بعد أن أمعنا في النظر أنها حقيقية.

وعندما انتهت كنا فرحين لأنها بمثابة الكابوس، غير أنه كابوس ممتع، لأننا اطلعنا فيها على شيء جديد.

والشيء الذي أحزننا أننا رأينا داخل دار السينما فتاة تغازل شاباً، يظهر ذلك منها أثناء إطفاء الأنوار، وهو شيء نراه أول مرة مما جعلنا نضيق بهذه السينما بالفعل.

الحر والرطوبة:

كنا نعاني من الحر الشديد والرطوبة الثقيلة، في الدمام، ووجدنا أن ذلك أشد في البحرين إلا أن الذي يخفف الأمر فيه أن فندقنا فيه مراوح ينام الإنسان تحتها والدمام بل مقاطعة الظهران كلها ليست فيها كهرباء عامة، وإن كانوا أرونا بعض المحركات والمعدات التي أتت بها شركة للكهرباء كانت أنشئت لهذا الغرض ولكن ذلك يحتاج إلى شهور طويلة وربما أكثر من سنة.

وقد زرنا في البحرين كل معالمها تقريباً، ومن ألطفها (عين عذاري) بفتح العين وكسر الراء وهي عين واسعة عليها نخيل كثيرة ريانة.

العودة إلى الدمام:

قضينا في البحرين يومين في سياحة ممتعة لغرابتها علينا وعدنا للدمام بعد ذلك، وقد شفينا أنفسنا من رؤية الظهران وكان أشق ما علينا هو شدة الحر والرطوبة مع عدم وجود الكهرباء فلا مراوح ولا تبريد.

الوسيلة الوحيدة للتبريد التي رأيناها وكانت موجودة في مجلس مضيفنا الشيخ محمد بن عودة هي (الباقدير) وهو مجرى الهواء يكون ملصقاً بالجدار يدخل منه الهواء إلى الغرفة، إذا تحرك فيحرك هواءها وهو قليل الغَنَاءِ الآن، لأن الهواء كله حار رطب، وليس من المؤكد أن يتحرك الهواء.

وأصعب من ذلك النوم مع هذا الحر الشديد، ولكن مضيفنا الشيخ محمد شكر الله له يرسل معنا سيارته إلى خارج الدمام في ضاحية رملية تسمى (العدام) أو (العدامة) فكنا نذهب إليها بعد العشاء- بفتح العين ويكون ذلك قبل صلاة العشاء- بكسر العين، تحمل السيارة منامنا أي فراش كل واحد لنا وهو فراش مفرد لكل واحد، ونحن اثنان ومعنا شاب مؤدب مهذب خلوق كريم الطبع رضي الخلق هو الأخ ناصر بن محمد السعوي وهو كاتب في المحكمة، ولكن أهله ليسوا معه، فكان يخرج معنا وأحياناً يخرج معنا شخص آخر فنبيت في الخلاء (العدام) متباعدين، فنحس بالهواء الصحراوي المنعش وإن كانت الرطوبة تكدره.

مغادرة الدمام:

طلبنا من مضيفنا الكريم الشيخ محمد بن عبدالله ال عودة السعوي نائب رئيس محكمة الخبر- جزاه الله عنا خيراً- أن يأذن لنا بالعودة إلى بريدة، فوافق على ذلك بعد تمنع قائلاً: يمكنكم أن تبقوا أكثر.

وهذه المرة رتب هو سفرنا بالطائرة من الظهران إلى الرياض.

ومن مطار الرياض توجهنا فوراً إلى بريدة إذْ صادفنا سيارة قد أكملت حمولتها إلى بريدة فركبنا فيها.

وكانت عودتنا إلى بريدة في اليوم الخامس من شهر ذي القعدة عام ١٣٧٠هـ بعد غياب استمر خمسة وعشرين يوماً ولله الحمد.

إنتهت الرحلة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة